المقياس: مدخل إلى الفلسفة العامة الفئة: طلبة السنة أولى علوم اجتماعية

المحاضرة الأولى: **ماهية الفلسفة** 2025 /2024

مدخل: لكل حضارة من حضارات الإنسانية ميراث فكري وثقافي يشهد لها بأثر في ترجمة إعمالات العقل في الكون، إذ كان يروم البحث ولا يزال، توخيا لولوج عوالم الحقيقة. ولا ريب أن بدايات أولى استتبت إبان قطع العقل وصاله مع أضرب التفكير غير السوية، معلنا قطائع ودحوضات جريئة مع أشكال التفكير السالفة إذ كانت موغلة في الأسطرة والخرافة والسحر وغيرها. وما تلاها حق له أن يوسم بسمة العقلنة ابتداء، حاز على نزر يسير من سمات التفكير العميق في قضايا الإنسان والكون واللاهوت، اصطلح عليه فيما بعد بالتفكير الفلسفي. و قد كانت الفلسفة ولا زالت مهد الحضارة الإنسانية وأصل كل إشعاع فكري وكل تحول قيمي أخلاقي في تاريخ الشعوب والمجتمعات، بدت فيها ثورات الفكر فاعلة وتمثل مشكلاتها متميزة قياسا بما تهتم له العلوم الأخرى. فما الفلسفة؟ وأي ماهية تجلي هويتها؟.

01/ مفهوم الفلسفة:

أ ــ المعنى اللغوي:

أشير بالفلسفة في مدلولها اللغوي على محبة الحكمة، وقد آثر فيثاغورس اليوناني تسمية الفيلسوف بالمحب للحكمة. وتركيبتها في المنطوق اليوناني: فيلا: وتعني محبة وإيثار. وصوفيا: تعني الحكمة. وتعني في ثقافتنا العربية الإسلامية " إعمال العقل" وقد دلت على الفكر والمحاجة والاستدلال على قضايا المعرفة الشمولية.

ب ــ الدلالة الاصطلاحية:

عرفها فيلسوف مدرسة فرانكفورت 'هوركهايمر' بقوله: " يسعنا اعتبار الفلسفة محاولة منهجية وجادة لإدخال العقل في العالم". ويشار بها عند 'فندلباند' : "باعتبارها المعنية بالمعالجة العلمية للمسائل العامة في معرفة العالم وإعطاء رأي في الحياة"[1].

[1] بيتر كونزمان وآخرون: أطلس الفلسفة، تر، جورج كتورة، المكتبة الشرقية، ط 10، 2003،

الفلسفة في دليل أكسفورد: " الفلسفة تفكير نقدي عقلاني من نوع منظومي بدرجة أو بأخرى حول طبيعة العالم العامة، (الميثافيزيقا أو نظرية الوجود) تبرير المعتقد (الابستيمولوجيا أو نظرية المعرفة) وعيش الحياة (علم الأخلاق أو نظرية القيم). لكل من هذه العناصر الثلاثة نظير غير فلسفي، تتميز عنها بطريقتها العقلانية والنقدية الصريحة في القيام بشؤونه وبطبيعته المنظومية[2]. ولا ريب أن تاريخ الفلسفة حافل بالسجالات والجدالات الفكرية التي أفردت الخطاب الفلسفي بروح الجدل، وعمق النظر، ووجاهة الاستدلالات المنطقية. كذا عد المنطق عصب الفلسفة ظل زلا يزال محققا الاتساق وجودة البنيات الفكرية المنهجية للأفكار والحقائق والنظريات. وقد تجدر الجدل في فلسفات السابقين من فلاسفة اليونان ابتداء من هيراقليطس فأفلاطون وأرسطو، وحديثا تطور الفكر الجدلي على يد هيغل وكانت وماركس وآخرون. وق أبان أرسطو عن تأصيل بدايات الفلسفة الحقة خلاف ما ابتدأت به فلسفة أستاذه أفلاطون، إذ يقول: " ما دام العالم الذي نعيش فيه هو عالم الجزئيات الحسية، وجب أن تبتدئ الفلسفة من هنا، أي من عالم الصيرورة أو الحس الواقع تحت سمعنا وبصرنا. ونحن إذا فحصنا عن ماهية هذا العالم ثبت لنا أنه عالم مركب، وليس عالما بسيطا، خلافا لما ذهب إليه الطبائعيون الأول، الذين اكتفوا بالبحث عن العلة المادية للأشياء"[3].

وقد عرّف ابن رشد الفلسفة في مؤلفه 'فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال' جاء فيه: " إن كان فعل الفلسفة ليس شيئا أكثر ممن النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع، أعني من جهة ما هي مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها. وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم، وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات وحثّ على ذلك"[4].

وعرّف جيل دولوز الفلسفة في مؤلف: ما هي الفلسفة؟ قائلا: " الفلسفة هي فن تكوين وإبداع وصنع المفاهيم...إن الفيلسوف صديق المفهوم، إنه بالقوة مفهوم. مفاد هذا أن الفلسفة ليست مجرد فن تشكيل وابتكار وصنع المفاهيم، ذلك لأن المفاهيم ليست بالضرورة أشكالا أو اكتشافات أو مواد مصنوعة. إن الفلسفة بتدقيق أكبر هي الحقل المعرفي القائم على إبداع المفاهيم".[5] وقد مضت

---

[2] دليل أكسفور، ج2، ص 667.

[3] ماجد الفخري: أرسطو طاليس، المعلم الأول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ص 17.

[4] ابن رشد: فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من التصال، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، د ت، ص 37.

[5] جيل دولوز: ماهي الفلسفة، تر، مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص ص 28 - 30.

الإبستيمولوجيا المعاصرة تحاكي نظرية المفهوم، لأجل تقعيد الخطاب الفلسفي على أصوله الجلية للعقل والواقع، مراعية ضرورات التحويرات والتبدلات التي تطرأ على موضوعات ومشكلات المعرفة في فلسفة العلم، ابتداء من مطلع القرن العشرين، وقد أشار إلى ذلك باشلار، ومايرسون، وكون، وبوبر، وفيرابند، وفوكو وآخرون. وتلك تحديدات مقامية لازمة تقوم على نظرية القطائع التاريخية، التي توجب تقويم وتحقيق الأنساق والأطر الإبستيمية لمقتضيات المعرفة في الفلسفة المعاصرة. وذاك ما عناه نتشه حين قصر مهمة الفلسفة ماثلة في صنع وإبداع المفاهيم قائلا: " لا ينبغي أن يكتفي الفلاسفة بقبول المفاهيم التي تمنح لهم مقتصرين على صقلها وإعادة بريقها، وإنما عليهم الشروع بصنعها وإبداعها وطرحها وإقناع الناس باللجوء إليها"[6].

وقد كان ديدن الفلاسفة منذ القدم قصديتهم الجريئة النازعة إلى التمكين لأخلاق الإنسان القيمية وقد أقر أفلاطون أن الغرض من الفلسفة هو تعريف الإنسان بالفضائل الحقة التي تجلب له السعادة القصوى، وأسماها قيم: الحق والخير والجمال.

وتتحدد قيم الفلسفة في مواضع أخرى حين تحقق التماهي الحقيقي بين عالمي الإنسان والكون، منتهجة الطرائق الديداكتيكية. وعليه فإن ' القيمة المباشرة للفلسفة وجدواها إما جوهرية أو تعليمية. جوهريا تقوم الفلسفة أو تروم إرضاء الرغبة الفكرية في المعرفة أو الفهم الشامل. إننا نقارب العالم وتدبير أنفسنا ضمنه بمتفرقات من المعتقدات والتفضيلات والعادات السلوكية غير المرتبطة بدرجة أو بأخرى وغالبا ما تكون مكتسبة أو مفروضة علينا من قبل الآخرين..[7].

وإن سألت فلاسفة العلم المعاصرين عن الفلسفة لأجابوا بأنها دراسة حول العلم، وحول تاريخه، دراسة تقوم على التمحيص والنظر والمراجعة والتفنيد أحيانا، ذلك ان تاريخ العلم محاط بعوائق وعقبات. إن تحليل العوائق والعقبات في خطابات المعرفة الموصول بمجال الفلسفة التطبيقية إنما ينتسب إلى الفلسفة انتسابا، وإلى الفلسفة العقلانية رسوخا، بالنظر إلى تاريخية العلم وحاجته إلى خلق آليات جديدة لفهم علاقة الفلسفة بغيرها من العلوم، ومن جهة إدراك ضرورة الفلسفة التي تفهمنا منطق الشمولية الحقلية التي لا نجد لها مثيلا في الحقول المعرفية الأخرى. وكذا يسعها استخلاص أنجع الممارسات النقدية، التي

---

[6] المرجع نفسه، ص ص 30 - 31.
[7] المرجع نفسه، ص 677.

عساها تعيد للحقيقة منطقها المشروع. تلك هي خاصية المراس العقلاني ذي المواضع الآخذة في التشعب والعمق. فإن العقل الناظر في مشكلاتها سيثبت لها أصولها وفاعلياتها المتصلة بالعلائق البينية بين الفلسفات المختلفة.

03/ أهمية الفلسفة وضرورتها: أكد الفلاسفة على مر عصور التاريخ على أهمية الفلسفة وضرورتها وكثرة نفعها للإنسان والتاريخ والحضارة، وكذا العلوم والفنون وكل أنماط التفكير الأخرى، فقد عدها سقراط نبع الأخلاق والحكمة، مرتكزها الحوار المنهجي الهادف إلى تحرير الوعي من الجهل، وبناء عالم الفضائل الإنسانية. وإلى ذلك نهج تلميذه أفلاطون، وإلى ذلك ذهب أبيقور عندما عرف الفلسفة بأنها الحكمة العملية التي توفر السعادة بالأدلة والأفكار. وإنما كانت الفلسفة ناظرة في الشرع مستلهمة منه أصول الحق والحكمة، وإلى ذلك قصد ابن رشد في مؤلفه فصل المقال. يري ديكارت أن نماء وتطور حضارة المجتمعات الإنسانية رهن حصيلة ما تحرزه من مكاسب نظرية وأخرى عملية، نستخلصه من ميراث الفلسفة الفكري، إذ يسهم في نماء وتعزيز ثقافة الوعي والتعايش والاعتراف، من دون تعصب او كراهية أو نشوز ثقافي أو بربرية محتملة. يقول 'ديكارت' في هذا المقام: " إن الفلسفة كفيلة بتمييزنا عن الأقوام المتوحشين و الهمجيين و أن مقاس تحضر أمة بين الأمم هو رهن تمكن أناسها من ممارسة مثلى للتفلسف" ثم إن الفلسفة تحرر الفكر وتنمي فينا روح النقد والمساءلة البناءة للقضايا والمشكلات التي يسع العقل حلها. يقول ماركس: " إن الإنسانية لا تطرح إلا المشكلات التي تستطيع حلها". حري بالفلسفة أن تسقف حجم الطموح البشري النازع للحرية والتحرر الموصولين بأخلاق الحياة والتعايش الإنساني الحق. وكلما حصل التمكين لقيم الفلسفة كلما نحت بالبشرية إلى عوالم الأنسنة الحقة. ولا ريب أن حضور العقل الناظر المستبصر بقضايا الإنسان والكون يستوجب إثارة تساؤلات وجيهة تخلخل المشكلات والمعضلات لتبلغ المستصفى فيها من حقائق وقيم ومناهج تعقل وحياة. والفلسفة فوق كل ذلك هي أفق للتثاقف والتوجيه القيمي الاجتماعي يعين الفرد على الاندماج والتواصل، وكذا هي فلسفة عمل. وقد لخص برتراند راسل المراد من الفلسفة في قوله: " إن الفلسفة تهدف ككل الدراسات الأخرى بادئ ذي بدء إلى المعرفة، والمعرفة التي تهدف إليها هي ذلك النوع من المعرفة الذي يكسب مجموعة العلوم وحدة ونسقا، ذلك النوع الذي يأتي من التمحيص الدقيق والنقد المتين للقواعد التي تقوم عليها آراءنا وأحكامنا ومعتقداتنا[8].

خاتمة: الفلسفة في أوسع معانيها لا يحدها تعريف ولا يشملها حقل دون آخر، لأنها توجد حيث يوجد العقل الناظر المتأمل في ذاته وفي العوالم الكونية العينية والميثافيزيقية. والفلسفة فوق كل ذلك ميراث ومرجع معرفي ثقافي أسهم ولا يزال في رسم معالم البحث والاستكشاف العلمي والفني في حقول المعرفة

[8] برتراند راسل: مشكلات فلسفية، تر، سمير عبده، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2016، ص 164.

المختلفة. مرتكزها مقولات مركزية لا يحيد عنها العقل المنطقي، نحو الجدل والنقد والتحليل والعمق والشمولية، تتلك سمات التفكير الفلسفي التي سنعرض لها في محاضرتنا التالية.